ثقِّل أذنيه واطمس عينيه

لما رأى أشعياء النبي الرب جالساً على كرسيه وأذياله تملأ الهيكل شعر بنجاسته فطار واحد من السيرافيم وبيده جمرة أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمه فانتزع إثمه وكفر عن خطيته. ثم بعد ذلك سمع صوت الرب من أرسل ومن يذهب من أجلنا فقال هأنذا أرسلني. والعجيب في أشعياء النبي أنه اندفع في غيرة الحب لقبول دعوة الرب دون أن يعرف مسبقاً موضوع إرساليته وطبيعة الخدمة المطلوبة منه. لكن يا للعجب!! فبعد قبوله التكليف بدأ الله يعلن له المطلوب منه في خدمته: "اذهب وقل لهذا الشعب اسمعوا سمعاً ولا تفهموا وأبصروا إبصاراً ولا تعرفوا. غلِّظ قلب هذا الشعب وثقِّل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه ويرجع فيشفى" (أش٦: ٩-١٠). والأعجب من ذلك أن أشعياء النبي لم يناقش الرب في تلك الإرسالية العجيبة بل سأله فقط: "إلى متى أيها السيد؟" (أش٦:١١). أية إرسالية تلك التي يكلف فيها الرب خادمه الأمين أن يقوم بتغليظ قلب الشعب، وتثقيل أذنيه، وطمس عينيه؟ وكيف لهذا الخادم أن يقوم بذلك ومن المفترض فيه أن تكون رسالته رسالة خلاص؟ كيف للطبيب الذي يشفي القلوب والعينين والأذنين أن يغلظها ويطمسها ويثقلها؟!!

في الحقيقة عمل النبي أو الرسول أو الخادم هو أن يعلن عن الحق والنور. وتختلف استجابة كل واحد بحسب ميول قلبه. فصاحب القلب الشرير يصير نور الحق الإلهي حارقاً لعيني قلبه العليلة فيزداد عمى فوق عمى: "من يوبخ مستهزئاً يكسب لنفسه هواناً ومن ينذر شريراً يكسب عيباً. لا توبخ مستهزئاً لئلا يبغضك" (أم٩: ٧-٨) أما صاحب القلب المتواضع فإن عينيه تكونان مستعدتان للاستنارة بنعمة فوق نعمة: "أعطِ حكيماً فيكون أوفر حكمة. علم صديقاً فيزداد علماً" (أم٩:٩). هذا بعينه ما أعلنه السيد المسيح في قوله: "وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله. وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة" (يو٣: ١٩-٢١).

يتضح من قول السيد المسيح هذا أن العلة الحقيقية في غلاظة القلب وعمى العينين وطمس الأذنين ليست فيما يعمله الله بواسطة خادمه بل هي تكمن في عبارة "لأن أعمالهم كانت شريرة". بالتالي، لا يحبطن أي خادم من خدام الله الأمناء؛ بل ليعلم أنه يوجد أناس كلما تواجهوا مع النور والحق كلما تقسى عماهم وصممهم وغلاظة قلوبهم بسبب تمسكهم بالشر. ولا يكن هذا مدعاة للخادم للكلل، والملل، والكف عن الشهادة للنور والحق، والكف عن محبة المقاومين بل ليكن متشبهاً بسيده القائل: "بسطت يدي طول النهار إلى شعب متمرد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره" (أش٦٥:٢).